الأحوال العامَّة لمدينة الحِلَّة منذ السيطرة العثمانيَّة على العراق سنة ١٥٣٤م إلى بداية القرن الثامن عشر سنة ١٧٠٠م

أ.م.د. عليّ طالب عبيد السلطانيّ
كليَّة الإمام الكاظم عليه السلام/أقسام بابل

General Conditions of the City of Hilla since the Ottoman Control of Iraq from the year 1534 AD. until the beginning of the Eighteenth Century in the year 1700 AD.

Asst. Prof. Dr. Ali Talib Obaid Al-Sultani
Imam Al-Kadhim College (PBUH)/Sections of Babylon

الملخَّص

اهتمَّت الدراسات التاريخيَّة بمدينة الحِلَّة، بمختلف عصورها، وكانت عصورها الحديثة، لاسيما مرحلة القرن الثامن عشر من ضمن هذه الاهتمامات، إذ فرض العثمانيُّون سيطرتهم على الحِلَّة أوَّل مرَّة، بعد أن عُدَّت سنجقًا من سناجق ولاية بغداد، وذلك بموجب التنظيمات الإداريَّة التي أوجدها السلطان العثمانيّ سليمان القانونيّ بعد دخوله لبغداد من دون أيَّة مقاومة تُذكَر، وقد أوَّلى العثمانيُّون سنجق الحِلَّة أهميَّةً كبيرةً؛ لكونها أقرب السناجق إلى مركز الولاية في بغداد. وبذلك اعتُمِد عليها في تأمين الأرزاق لفئات عديدة من العثمانيِّين من جنود وغيرهم، فضلًا عن تهيئة ما يحتاجون في حركاتهم التوسُّعيَّة نحو مناطق العراق الأخرى، وبذلك حصلت الحِلَّة على هذه الأهميَّة في ميادين مختلفة، منها ما هو اقتصاديّ، أو دينيّ، أو سياسيّ.

Abstract

Historical studies focused on the city of Hilla and its various eras, and its modern eras, especially the eighteenth century, were among these interests, as the Ottomans imposed their control over Hilla for the first time, after it was considered a sanjak among the sanjaks of the Baghdad state. This is in accordance with the administrative arrangements created by the Ottoman Sultan Suleiman Kanuni after his entry into Baghdad without any significant resistance. The Ottomans attached great importance to the Sanjak of Hilla because it was the closest sanjak to the center of the state in Baghdad. Thus, he relied on it to secure resources for many groups of Ottomans, including soldiers and others, in addition to preparing what they needed in their expansionist movements towards other regions of Iraq. Thus, Hilla gained this importance through a group of factors, including economic, religious, or political factors.

المقدِّمة

حظيت مدينة الحِلَّة بدراسات تاريخيَّة غطَّت مختلف عصورها، منذ تأسيسها سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، وكانت عصورها الإسلاميَّة الأكثر حظوةً واهتمامًا عند الباحثين، على العكس من عصورها الحديثة، وبالتحديد مرحلة العهد العثمانيّ، إذ لم تنل الحِلَّة دراسات متخصِّصة في كلِّ ما يتعلَّق بتاريخها في هذه المرحلة.

ومن هنا اختير موضوع هذا البحث (الأحوال العامَّة لمدينة الحِلَّة منذ السيطرة العثمانيَّة على العراق سنة ١٥٣٤م وإلى بداية القرن الثامن عشر سنة ١٧٠٠م)، آخذين بالحسبان أنَّ هذا التحديد الزمنيّ لا يعني حصر الدراسة بين هَذَين التاريخَين فقط؛ لأنَّ التعامل مع الماضي على وفق منهج التحليل التاريخيّ ينبغي النظر إليه على أنَّه حركة دائمة في نطاق زمنيّ محدَّد ومتواصل، بمؤثِّرات في مرحلة تاريخيَّة لاحقة، وبمعنى أدق إنَّ كلَّ مرحلة تحمل بعض السمات الحضاريَّة للمرحلة التي سبقتها، وفي الوقت نفسه تحمل هي بذور المرحلة التي تليها أنفًا.

وشهدت المرحلة التاريخيَّة عنوان البحث، تطوُّرات كثيرة وخطيرة، كان لها تأثير كبير في مجمل الحياة العامَّة في عموم العراق، ومنها مدينة الحِلَّة، إذ شهدت هذه المرحلة سيطرة العثمانيِّين على العراق بمختلف مناطقه، وما مثَّلته هذه السيطرة من تفاقم كبير للصراع العثمانيّ- الفارسيّ، لدرجة أصبح العراق فيها وكأنَّه ساحة الصراع الرئيسة بينهما، فضلًا عن ذلك، فإنَّ التقسيمات الإداريَّة التي أوجدها العثمانيُّون، ووضعت مدينة الحِلَّة كسنجق (محافظة) تابعة لأيالة (ولاية) بغداد، ممَّا جعلها، وهي القريبة منها،

أي قريبة من بغداد، إحدى البوَّابات الرئيسة للدخول إليها، وهذا الأمر انعكس على أوضاع سكَّانها الذين عانوا بسبب غزارة الإنتاج ووفرة المياه (وجود شطِّ الحِلَّة)، لأنَّ العثمانيين كانوا بين مدَّة وأخرى، يفرضون ضرائب متنوِّعة وبمسمَّيات مختلفة، ممَّا جعل أهلها يعيشون حالة من البؤس والفقر نتيجةً لذلك، وكلُّ هذه الأسباب مجتمعة أدَّت إلى امتناع أهلها من دفع الضرائب المفروضة عليهم، وهو ما دفع العثمانيُّون إلى استخدام أبشع أساليب الظلم والقسوة ضدَّهم، وهو ما أدَّى أيضًا إلى اضطراب الأوضاع العامَّة فيها، وعدم الاستقرار.

الأحوال العامَّة لمدينة الحِلَّة منذ السيطرة العثمانيَّة على العراق سنة ١٥٣٤م إلى بداية القرن الثامن عشر سنة ١٧٠٠م

فرض العثمانيُّون سيطرتهم على الحِلَّة أوَّل مرَّة، بعد أن عُدَّت سنجقًا[١] من سناجق أيالـه[٢] بغداد الثمانية عـشر، والتي كانت الحِلَّة تابعة لهـا[٣]، وذلك بموجب التنظيمات

(١) السـنجق: كلمة تركيَّة ذات معاني متعدِّدة، تأتي بمعنى العَلَم أو الراية، وهو الوحدة الأساسـيَّة في إدارة الأيالـة (التـي هـي أكبر من السـنجق)، وغالبًـا ما تُسـتبدَل كلمة سـنجق بكلمة لواء العربيَّة، التي كثُر اسـتخدامها في السـجلَّات الرسـميَّة للدولة العثمانيَّة. ويكون على رأس إدارة السـنجق أمـير يحمل رتبة ميرلوا، أي أمير اللواء. للمزيد مـن المعلومات ينظر: خليل عليّ مراد، تاريـخ العـراق الإداريّ والاقتصـاديّ في العهـد العثـمانيّ الثـاني ١٩٤٨-١١٦٤هـ/ ١٦٣٨-١٧٥٠م، رسـالة ماجسـتير غير منشـورة، كليَّـة الآداب، جامعة بغداد، كانـون الأوَّل ١٩٧٥، ص١١٧.

(٢) الأيالة: أكبر وحدة إداريَّة في الدولة العثمانيَّة، يكون على رأس إدارتها حاكم يسـمَّى بكلربكي، أي بـك البكـوات، ويحمل رتبة ميرميران، أي أمـير الأمراء. ويرى المـؤرِّخ الإنكليزي (دونالد بيتجر) أنَّ الدولة العثمانيَّة جرى تقسيمها إلى أيالات أيَّام السلطان العثمانيّ مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م)، بينـما يـرى المؤرِّخ التركـي (خليل إينالجيـك) أنَّ مصطلح أياله كان قد اسـتُخدِم في سجلَّات ووثائق الدولة العثمانيَّة ١٥١٦-١٩١٦م، دمشق، ١٩٧٤، ص٦٤.

Donald Pitcher, An Historical Geography of the Ottoman Empire fromear liest to the end of the Sixteenth Century, Cambridge, 1972, p. 102, Halil Inalcik, The Encyclopeadia of Islam, Art Eyalet, New Edition, London, 1965, Vol. 2, pp. 721- 722

(٣) وهي، عدا بغداد، كونها مركز الأيالة، سـناجق: ١. الحِلَّة، ٢. زنك آباد، ومن توابعها قزلرباط (السـعديَّة)، ٣. الجوازر (الجزائر) كانت بيد أمير طي بن عليَّان، ٤. الرمَّاحيَّة، ٥. جنكولة، من الألوية المجاورة لإيران، ٦. قره طاغ (قراداغ)، قضاء تابع للسليمانيَّة، ٧. درتنك (المعروفة قديمًا=

الإداريَّة التي أوجدها سليمان القانونيّ بعد احتلاله بغداد سنة ١٥٣٤م[١]، التي كانت قبل ذلك تحت سيطرة الفرس، وعليها الحاكم الفارسيّ محمَّد خان تكه لو[٢]، الذي فرَّ هاربًا، فدخلها السلطان العثماني سليمان القانونيّ فاتحًا دون مقاومة تُذكَر، بعد أن حاول أوَّلًا تنفيذ مخطَّطه باحتلال العراق، باستمالة حكَّامه المحلِّيِّين، وكادت تلك المحاولة أن يُكتَب لها النجاح، حين أعلن ذو الفقار خان (أحد الولاة الصفويِّين) نفسه حاكمًا على بغداد[٣]، لاسيما أنَّ القرن السادس عشر كان قد شهد صراعًا عنيفًا بين الدولتَين

=حلوان)، وهي الآن تابعة لإيران، ٨. السماوة (وردت أحيانًا بلفظ سماوات)، ٩. البيات (في كركوك)، ١٠. درنة (الآن بيد إيران، وتجاور درتنك، وهما يعدَّان لواءً واحدًا)، ١١. دهبالا، وتقع في أعلى بشتكوه (وهي الآن بيد الفيليَّة)، ١٢. واسط، ١٣. كرند، وتُلفظ كرنت (والآن هي بيد إيران)، ١٤. دميرقبو، ١٥. قزانية (الآن تعدُّ من توابع مندلي)، ١٦. كيلان العراق (وتقع ما بين كركوك وإيران)، ١٧. الصاح كفري (وتشكيلتها قبيلة الصالحيَّة في التون كوبري)، ١٨. العماديَّة (في القسم الشماليّ من العراق). للمزيد ينظر: عبَّاس العزَّاويّ، تاريخ العراق بين احتلالَين، ج٤، بغداد، ١٩٤٩، ص٨٢-٢٨٤، ألبرت حوراني، الأسس العثمانيَّة للشرق الأوسط، مجلَّة تاريخ العرب والعالم، العدد (١٣)، ١٩٨٢، ص٢٤.

(١) سليمان القانونيّ (سليمان الأوَّل ١٥٢٠-١٥٦٦م): عاشر السلاطين العثمانيِّين، ولِد في غرَّة شهر شعبان سنة ٩٠٠هـ/ ٢٧ نيسان ١٤٩٥م، في مدينة طرابزون الواقعة على ضفاف البحر الأسود، استلم مقاليد الحكم بصورة طبيعيَّة بعد موت أبيه السلطان سليم الأوَّل، دخل بغداد في ٢٤ جمادي الأوَّلى سنة ٩٤١هـ/ ٢ كانون الثاني ١٥٣٤م. للمزيد ينظر: محمَّد فؤاد كوبرلي، قيام الدولة العثمانيَّة، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٦٧، ص٧١، أندري كلو، سليمان القانونيّ مثال من التمازج بين الهويَّة والحداثة، تعريب: البشير بن سلامة، بيروت، ١٩٩١، ص٢٣.

(٢) تكه لو: إحدى القبائل التركمانية التي اعتمد عليها الشاه الصفويّ طهماسب الأوَّل (١٥٢٤-١٥٧٦م)، في حروبه ضدَّ العثمانيِّين، سكنت تلك القبائل الساحل الجنوبيّ لبحر قزوين إلى القرب من خراسان. وللمزيد عنها ينظر: باول هورن، تاريخ مختصر إيران، طهران، ١٣١٤هـ.ش، ص١٤٣، شمس الدين سامي، قاموس أعلام، مج٣، استانبول، مطبعة اقدام سي، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، ص١٦٦٥.

(٣) للمزيد من المعلومات عن محاولة ذو الفقار خان، وسيطرته على بغداد، ينظر: إبراهيم خليل=

الصفويَّـة والعثمانيَّة[1] من أجل بسـط سـيطرتهما ونفوذهما على الأقطـار العربيَّة، ومنها العراق، الذي يُعدُّ قلب العالم القديم؛ لربطه خطوط التجارة بين أوربا والشرق البعيد، في مرحلة تاريخيَّة كان فيها العثمانيُّون هم المسـيطرين على تجارة البحار الشرقيَّة، ووجود العتبات المقدَّسة في (كربلاء، النجف، بغداد، سامرَّاء)، مضافًا إليها عوامل إستراتيجيَّة، هدفها الاسـتحواذ على اقتصاديَّات العالم، ما جعله سـاحة رئيسـة من سـاحات النزاع والاقتتال بين الدولَتَين[2].

وبموجب التنظيمات العثمانيَّة لسـنة ١٥٣٤م المار ذكرها، قسَّـم العثمانيُّون العراق إلى خمـس مناطـق إدارية (أيـالات)[3]، ليبـدأ معها تأسـيس الإدارة الجديـدة، والنظام

=أحمـد، تاريخ الوطن العـربيّ في العهد العثمانيّ، الموصـل، ١٩٨٦، ص٤٣، نيقولاي أداموف، الفتح العثمانيّ للأقطار العربيَّة ١٥١٦-١٥٧٤م، بيروت، ١٩٨٨، ص١٠٩.

(١) كانـت علاقة الدولة العثمانيَّـة بالبلاد العربيَّة، وحتَّى نهاية القرن الخامس عشر الميلاديّ، علاقة مجاملـة ومؤازرة عن طريق المراسـلة، وتبادل الوفود، بينما شـهد القرن السـادس عشر الميلاديّ صدامـات وصراعـات عديـدة بـين الصفويِّـين والعثمانيِّـين، كانـت نتيجتها الحاسـمة معركة جالديران، بالقرب من تبريز، شرقي بحيرة أرمينيه، في ٢ رجب سنة ٩٢٠هـ/ ٢٣ آب ١٥١٤م، بين جيوش السلطان سليم الأوَّل، والشاه إسماعيل الصفوي، انتهت بانتصار العثمانيِّين واحتلال تبريز عاصمة الدولة الصفويَّة، كما بسـط العثمانيُّون بعد تلك المعركة نفوذهم على أرض الجزيرة والموصـل، الأمر الذي مكَّنهم بالتالي من تأمين حدودهم الشرقيَّـة من الخطر الصفويّ. للمزيد ينظر: سـاطع الحصريّ، البـلاد العربيَّة والدولة العثمانيَّة، بـيروت، ١٩٧٠، ص٣٧، محمَّد فريد بـك، تاريخ الدولـة العليَّة العثمانيَّة، القاهرة، مطبعة الأنجلـو- مصريَّة، ١٩١٢، ص٥٧، محمَّد أنيس، الدولة العثمانيَّة والشرق العربيّ ١٥١٤-١٩١٤، القاهرة، ١٩٦٧، ص٤٢.

(٢) فيليـب حتِّي، موجز تاريخ الشرق الأدنى، بيروت، ١٩٦٥، ص٣٦٨، سـيَّار كوكب الجميل، إسـتراتيجيَّة العراق وأثرها في نشـوء الصراع العثمانيّ- الفارسيّ، مجلَّة آفاق عربية، العدد (١٠)، حزيران ١٩٨١، ص٢٣.

(٣) هـي أيالات بغـداد، الموصل، البصرة، الأحسـاء، شـهرزور. علمًا أنَّ تلـك الأيالات دخلت تحت السـيطرة العثمانيَّة في أوقات مختلفة (الموصل سـنة ١٥١٦م، بعد معركة جالديران، بغداد=

الضرائبيّ[١]، ثـمَّ بعد ذلك أمر السـلطان العثمانيّ سـليمان القانونّي بإرسـال قوّاته إلى أطـراف العـراق، ومنها الحِلَّة، التـي كانت تحت سـيطرة الصفويِّـين، ويحكمها حاكم صفـويّ نصَّبه الشـاه الصفويّ طهماسـب الأوَّل، تذكره بعض المصادر التاريخيَّة باسـم (سـيد بيـك)[٢]، في حين أشـار مصدر آخـر إلى ذلـك، فذكر أنَّ الشـاه عـينَّ الضبَّاط المخلصـين له عـلى بعض الحاكميَّـات، ومنهـا الحِلَّة، مـن دون أن يذكر أسـماء أولئك الضبَّاط[٣].

وبعـد أن بسـط العثمانيُّـون سـيطرتهم ونفوذهـم عـلى الحِلَّـة، حـضر السـلطان سـليمان القانـونيّ بنفسـه إليها في ٩ صفـر ٩٤١هـ/ ١٧ تشريـن الثـاني ١٥٣٤م، قادمًا مـن كربـلاء والنجـف، إذ قـام ببعض الأعمال، شـأنه شـأن أغلـب الحـكَّام والملوك عنـد احتلالهـم البلاد أوَّل مـرَّة، وغايتهم كسـب رضا النـاس[٤]، ثمَّ بعـد ذلك رجع السـلطان العثمانيّ إلى بغـداد، التي غادرها بطريق البرِّ عائدًا إلى عاصمته اسـطنبول في

=في سنة ١٥٣٤م، وتمَّ الإشارة إلى ذلك، البصرة سنة ١٥٤٦م، الأحساء سنة ١٥٥١م، شهرزور سنة ١٥٥٤م). للمزيد ينظر: سـيَّار الجميل، تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦، الموصل، ١٩٩١، ص٧٤، خليل عليّ مراد، المصدر السابق، ص١١٧.

(١) نوري عبد الحميد خليل، العراق في مواجهة الغزو الأجنبيّ ١٢٥٨-١٩١٧م، بغداد، ١٩٩٨، ص ٢٣٢.

(٢) يوسـف كركوش الحِلِّيّ، تاريخ الحِلَّة، القسـم السـياسّي، الحياة السياسـيَّة، النجف، ١٩٦٥، ص١١٤، عـماد عبد السـلام رؤوف، إدارة العراق الأسر الحاكمة ورجـال الإدارة والقضاء في العراق في القرون المتأخِّرة، بغداد، ١٩٩٢، ص٨٩.

(٣) ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخيَّاط، ط٤، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٨، ص٣٥.

(٤) عبَّاس العزَّاوي، المصدر السابق، ص٢٩، يوسف كركوش الحِلِّيّ، المصدر السابق، ص١١٤، ألـبرت سـيديو، تاريخ العراق المتأخِّـر، ترجمة: إبراهيم حسـن، بيروت، مطبعـة البلاد، د.ت، ص١٥٧.

٢٨ شعبان ٩٤١هـ/ ٣١ أيار ١٥٣٤م[١]، فعيَّن سليمان باشا المجري (الطويل)، والي ديار بكر السابق، واليًا على بغداد، وهو أوَّل والٍ عثمانيّ على العراق بعد أن احتلَّه العثمانيُّون[٢].

أوَّلى العثمانيُّون سنجق الحِلَّة أهميَّة كبيرة، لاسيما بعد أن جرى تقسيمه إلى إقطاعات زراعيَّة يطبَّق فيها نظام التيمار[٣] الإقطاعي[٤]، إذ تولَّى إدارته ضبَّاط برتبة ميرلوا، كان ينظر في الأمور الإداريَّة والعسكريَّة في سنجقه، وواجبه حفظ الأمن والنظام فيه، وإرسال المبالغ المفروضة عليه إلى مركز الأيالة في بغداد[٥]. وكانت تلك الإقطاعات تندرج تحت اسم ديريلكات[٦]، إذ ساعد تطبيق هذا النظام الدولة العثمانيَّة على تحقيق أمرَين مهمَّين، أوَّلهما: تأمين الأرزاق لفئات متعدِّدة من الجند، بدلًا من تخصيص رواتب لهم[٧]، وثانيهما: تهيئة وتجهيز ما تحتاجه من الجند في حركاتها

(١) عبد الوهاب عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العرب الحديث، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٤، ص٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٩١.

(٣) التيمار: مصطلح عثمانيّ يُطلَق على الإقطاعات الزراعيَّة العسكريَّة، التي تُمنح لصغار الضبَّاط من الفرسان مقابل خدمتهم العسكريَّة، لا يقلُّ وارد تلك الإقطاعات عن عشرون ألف أقجه. للمزيد ينظر: خليل عليّ مراد، المصدر السابق، ص١٢٣.

(٤) عمر عبد العزيز عمر، المشرق العربيّ من الفتح العثمانيّ حتَّى نهاية القرن الثامن عشر، القاهرة، مطبعة النهضة العربيَّة، ١٩٧١، ص١١٢.

(٥) خليل عليّ مراد، المصدر السابق، ص١٢٨.

(٦) ديريلكات: جمع ديرلك أو درلك، وتعني كلُّ موارد الرزق التي يقدِّمها السلطان العثمانيّ للقائمين على خدمته، سواء كانت نقدًا أو أرضًا. للمزيد ينظر: هاملتون جب وهارولد بوين، المجتمع الإسلاميّ والغرب، ترجمة: عبد المجيد حسب القيسيّ، ج١، القسم الأوَّل، دمشق، دار المدى للثقافة، ١٩٩٧، ص٩٤.

(٧) عبد الكريم محمود غرايبة، مقدِّمة في تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ – ١٩١٨، ج١، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠، ص١٦٧.

التوسُّعيَّة[١]، وصنفت تلك الديريلكات إلى ثلاثة أصناف، هي:

١. التيمار: يتصرَّف بإيرادها شخص يسمَّى تيمارجي، ويتراوح واردها السنويّ ما بين عشرة آلاف وثلاثون ألف أقجه[٢]، ومساحتها تتراوح بين ثلاثمائة إلى خمسمائة فدَّان.

٢. زعامت: إقطاع أكبر من التيمار، يُعطى لأصحاب الكفاءة والخدمة الشخصيَّة، ومساحته تزيد على خمسمائة فدان، ودخله السنويّ يصل إلى مئة ألف أقجه.

٣. خاص (خاصلر أو خواصي): إقطاعات زراعيَّة تُقطَع في الغالب لأمراء السناجق[٣]، إذ كان لأوَّلئك الأمراء، شأنهم شأن ولاة الأيالات، مقاطعات للمعيشة من نوعٍ خاصٍّ، وواردات تلك الإقطاعات تزيد على مئة ألف أقجه[٤].

وسُلِّمت الحِلَّة في سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م، إلى مأمون بك بن بيكه بك (أحد الأمراء المتغلِّبين في شهرزور)[٥]، وكان مأمون بك هذا قد أرسله والده رهينة لدى السلطان سليمان القانونيّ، تأييدًا لخضوعه له، ثمَّ سلمه السلطان إلى سليمان باشا

(١) عبد الكريم محمود غرايبة، المصدر السابق، ص١٦٦.
(٢) أقجه: عملة تركيَّة، عُمِل بها أيَّام السلطان سليمان القانونيّ، تتألَّف من اق ومعناها أبيض، وجه وهي أداة تصفير فارسيَّة، فيكون معناها الذهبيَّة، لم تُسكّ بدار الضرب العثمانيَّة إلَّا بعد فتح القسطنطينيَّة، واسمها الكامل أقجه سي عصماني، أي القطعة العثمانيَّة الفضيَّة الصغيرة. للمزيد عنها ينظر: هاملتون جب وهارولد بوين، المصدر السابق، ج١، القسم الثاني، ص٥٧.
(٣) عبد الكريم رافق، المصدر السابق، ص١٠٤.
(٤) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص٧٦.
(٥) يوسف كركوش الحِلِّيّ، المصدرالسابق، ص١١٥.

المجـريّ والي بغداد آنـذاك، الذي أقطعه إمارة عدَّة ألوية، كان آخرهـا لواء الحِلَّة الغنيّ بموارده[١].

وفي سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م، وصل إلى الحِلَّة أمير قبطانية مصر سيدي عليّ ريس[٢]، الذي أرسـله السـلطان سـليمان القانوني ليُحضِر السـفن الموجودة في ميناء البصرة إلى مـصر[٣]، فمـرَّ بمقـام صاحب الزمـان (موقعه اليوم في مدخل سـوق الهـرج من جهة جسر الهنود)، وزار مشـهد الشـمس بعدها، ومن هناك في الحِلَّة عبر الفرات، وعاد إلى بغداد[٤].

وفي النصف الأخير من القرن العاشر الهجري/ السـادس عشر الميلادي، وتحديدًا في المحرم من سـنة ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م، ساءت أحوال الحِلَّة بصورة عامَّة، نتيجة لعصيان ابـن عليان في واسـط[٥]، إذ تعرَّضـت الحِلَّة في تلك المرحلة إلى عمليَّات سـلب ونهب،

(١) للمزيد من المعلومات عن مأمون بيك، وقصة إرسـاله رهينة لدى السلطان العثمانيّ، وتسلُّمه سنجق الحِلَّة، ينظر: عبَّاس العزَّاويّ، المصدر السابق، ص٥٧-٥٨، شرف الدين خان البدليسيّ، الشرفنامة، ترجمه عن الفارسيَّة: محمَّد عليّ عوني، ج٢، القاهرة، ١٩٦٢، ص٧٨، ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص٦٢.

(٢) سـيدي عليّ ريس: من مشـاهير رجال البحريَّة أيَّام السـلطان سـليمان القانونيّ، تسـلَّم قيادة أسطول البحر الأحمر المصريّ، كان متضلِّعًا في علم البحار وأحوال النجوم، وله مؤلَّفات عديدة في ذلـك، كـما كانت له الكثير من المغامـرات البحريَّة التي أظهر فيها الجرأة والبسـالة، كان أبوه رئيس دار الصناعة في غلطة. للمزيد عنه ينظر: عبد الحميد حامد سليمان، تاريخ الموانئ المصريَّة في العهـد العثمانيّ دورها السـياسيّ ونظمهـا الماليَّة والإداريَّـة والاقتصاديَّـة، القاهرة، ١٩٩٥، ص٢٦٤-٢٦٦.

(٣) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص٤٥.

(٤) عبَّاس العزَّاوي، المصدر السابق، ص٧٣.

(٥) ابـن عيـان: رئيس مجموعة من العشـائر السـاكنة أنحاء واسـط منذ فترة طويلـة، وكان ولائه للعثمانيِّين يتذبذب بين الطاعة مرَّة، والعصيان مرَّة أخرى، وبعد جلوس السـلطان سليم الثاني=

قامت بها العشائر القاطنة تلك المناطق، الأمر الذي نتج عنه سوء حالة الأهالي، وتعرُّضهم إلى شتَّى أنواع التعسف والظلم من قبل السلطة المحليَّة المنصَّبة عليها، والتي غالبًا ما حاولت، وفي مثل هكذا ظروف، أن تستحصل لنفسها أعلى درجات الفائدة والمناصب، فعملت على تهيئة نفقات القوات العثمانيَّة السائرة إلى واسط[١]، التي كانت بقيادة والي بغداد إسكندر باشا الجركسيّ[٢]، الذي قاد أسطولًا عثمانيًّا مكوَّنًا من أربعمائة وخمسين سفينة، مع ألفين من الينكرجيَّة[٣]، ومئتين من المدفعية، فلمَّا وصلوا إلى الحِلَّة، أقاموا فيها شهرَين من أجل تنظيم القوَّات المحاربة وإراحتهم[٤]، ولنا أن نتصوَّر ماذا يعني بقاء قوَّات الحكومة في مدينة ما لمدَّة شهرَين، الأمر الذي يفسِّر أنَّ سنجق الحِلَّة في تلك المرحلة عانى ما عانى من ظلم وجور الولاة، لاسيما ما يتعلَّق بجمع الضرائب والأتاوات، إذ أصبح أمرًا معلومًا أن يقوم أمير السنجق (السنجق

=(١٥٦٦-١٥٧٤)، أظهر عصيانه في تلك المناطق، وعمل على قطع الطريق، وفرَّ من الضرائب. للمزيد ينظر: عبَّاس العزَّاويّ، المصدر السابق، ج٤، ص١٠٧.

(١) أحمد مصطفى أبو حاكمة، محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربيَّة في العصور الحديثة، ترجمة: محمَّد أمين عبد الله، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٦، ص٤٦.

(٢) إسكندر باشا ٩٧٤-٩٧٧هـ/ ١٥٦٦-١٥٦٩م، والي بغداد أثناء عصيان ابن عليان، وهو من الجراكسة من قبيلة قبارتاي، كان من مماليك خسرو باشا والي ديار بكر، تدرَّج في المراتب العليا في البلاط العثمانيّ، حتَّى صار رئيس البوَّابين، ومن ثمَّ رئيس الجاووشيَّة، توفِّي في الأستانة ودُفِن فيها. للمزيد ينظر: باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، ولاتها، ملوكها، رؤساؤها منذ تأسيسها حتَّى سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١٥٠.

(٣) الينكجريَّة: وتعني الجنود الجدد، وتلفظ يني جري، ثمَّ حرَّفها الأوربيُّون إلى الإنكشاريَّة، مع أنَّ الكاف بالتركيَّة لا تُلفَظ، وهم موزَّعون في أرجاء الدولة العثمانيَّة المختلفة، ويتبعون بصفة مباشرة آغا الينكجريَّة، الذي يحضر الديوان الهمايونيّ (السلطانيّ)، بصفته قائدًا عامًّا للجيش. للمزيد ينظر:

Donald Pitcher, Op. Cit., p. 349.

(٤) عبَّاس العزَّاويّ، المصدر السابق، ج٤، ص١٠٧.

بكي)، أو الضابط العسكريّ المسؤول عن ذلك السنجق، أن يأتي بمجموعة من الجند المحلِّي، ويؤجِّر لهم الأراضي والإقطاعات الزراعيَّة، ويستخدم قوَّته في إجبار الناس على الدفع، أو أن يضمِّن الضرائب إلى جباة قساة[1].

وممَّا تقدَّم، يبدو أنَّ الحِلَّة كانت قد اكتسبت أهميَّتها من مجموعة عوامل، منها ما هو اقتصاديّ، ومنها ما هو دينيّ، ومنها ما هو سياسيّ، فالنسبة إلى العامل الاقتصاديّ، فإنَّ غِنى السنجق وخصوبة أراضيه، مضافًا إليها وفرة المياه فيه، قد أوجد للعثمانيِّين أموالًا طائلة ساعدتهم في تعزيز عملياتهم العسكريَّة الخارجيَّة والداخليَّة. أما العامل الدينيّ، فإنَّ العثمانيِّين كانوا ينظرون للصفويِّين بمنظار الشكِّ والخوف، وأنَّ جلَّ ما قاموا به في هذا الجانب هو زيادة اهتمامهم وسيطرتهم على الحِلَّة، التي هي أقرب السناجق إلى مدينتي كربلاء والنجف التابعتَين لهما ضمن التنظيمات الإداريَّة لسنة ١٥٣٤م، من أجل فرض نفوذهم على تلك المناطق، من دون المساس المباشر بعواطف الناس وميولهم الدينيَّة. وكذلك كان للعامل السياسيّ بُعده الكبير في ذلك الاهتمام، إذ كان لموقع الحِلَّة الجغرافيّ، ما جعله نقطة تجمُّع القوَّات العثمانيَّة وانطلاقها ضدَّ العشائر الثائرة، وضدَّ حركات العصيان والتمرُّد التي يقوم بها البعض، أمثال ابن عليان، المار ذكره، وغيره.

وفي مطلع القرن السابع عشر الميلادي، بدأت علامات الضعف والانهيار تظهر على جسد الإمبراطورية العثمانيَّة[2]، إذ لم تستطع تلك الامبراطوريَّة فرض سيطرتها على الأقاليم التابعة لها، ومنها العراق البعيد عن العاصمة العثمانيَّة[3]، الأمر الذي شجَّع

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص٦٩.

(٢) عبد الكريم محمود غرايبة، المصدر السابق، ص١٧٦.

(٣) ياسين الخطيب العمريّ، الدرُّ المكنون في المآثر الماضية من القرون، تحقيق: سيَّار كوكب الجميل، إسكتلندا، مطبعة شمس الشرق، ١٩٨٣، ص١٥٩.

المغامريـن، لا في العراق فحسـب، وإنَّما في سـائر أطـراف الدولة العثمانيَّـة، إلى إعلان الثورة، أو المجاهرة بالعصيان، فكانت حركة القائد الإنكشـاريّ محمَّد بن أحمد الطويل سـنة ١٦٠٦م[١]، والتي سـيطر بها على بغداد، لكنَّه اغتيل سـنة ١٦٠٧م من قِبَل كاتب ديوانه، فخلفه أخاه مصطفى باشا[٢]، والذي دخل في مفاوضات مع والي بغداد الجديد محمود بن جيغالزاده[٣]، انتهت تلك المفاوضات بحصول مصطفى باشا بن أحمد الطويل على سنجق الحِلَّة[٤].

وفي سنة ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م، أُرسِـل بكر صوباشي[٥] إلى منطقة الفرات الأوسط، حيـث تضاربت آراء المؤرِّخين عن سـبب توجُّهه إلى تلك المنطقـة، فبعض المؤرِّخين[٦]

(١) لمزيـد من التفاصيل عـن محاولات آل الطويل، ينظر: حسـين محمَّد القهواتـيّ، تاريخ العراق بين الاحتلال العثمانيّ الأوَّل والثاني ١٥٣٤-١٦٣٨م، رسـالة ماجسـتير، كليَّة الآداب، جامعة بغداد، كانون الثاني، ١٩٧٥، ص١٦٦-١٧٨.

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص٥٣.

(٣) محمـود بن جيغالزاده: والي بغداد للمدَّة من (١٠١٧-١٠١٩هـ/ ١٦٠٨-١٦١٠م)، عُهِد إليه بذلك المنصب، فذهب إليها مع جيش كبير من الأكراد والعرب وآل قشعم، فألقوا الحصار على مصطفى باشـا، أنشـأ هذا الوالي مدينة المحموديَّة جنوب بغداد، توفِّي سنة ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م. للمزيد ينظر: باقر أمين الورد، المصدر السابق، ص١٦٦.

(٤) نظمـي زاده مرتـضى أفنـدي، كلـش خلفا، نقلـه إلى العربيَّة: موسـى كاظم نـورس، النجف الأشرف، مطبعة الآداب، ١٩٧١، ص٦٦.

(٥) الصوبـاشي: لقب حربي كبير، شـاع اسـتعماله في الأناضـول منذ القرن الرابـع عشر الميلاديّ، يقـوم بأعـمال الشرطة ليـلًا، وكان أهل الحِلَّة، وحتَّى وقت قريب، يسـمُّون الوكيل في البسـتان (شـوباصي)، وهي تحريف كلمة (سوباغي)، أي رئيس البستان . للمزيد ينظر: محمود شوكت، عثماني، تشكيلات وقيافات عسكريَّة، استانبول ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م، ص٦٢، يعقوب سركيس، مباحث عراقيَّة في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد، القسـم الثاني، بغداد، مطبعة شركة التجارة والطباعة المحدودة، ١٩٥٥، ص١٣٤.

(٦) نظمي زاده مرتضى أفندي، المصدر السابق، ص٢١٢، إسكندر بك منشي تركمان، ذيل تاريخ=

يـرى أنَّه توجـه إلى الحِلَّة لجبايـة الضرائب من الفلاحـين الذين امتنعوا عـن دفعها إلى السـباهيَّة[١]، على حين يرى البعض الآخر من المؤرِّخين أنَّ ذهابه إلى تلك المنطقة سـببه الصراع مع كبار الإنكشـاريَّة في السـماوة[٢]، وبقطع النظر عن الأسـباب الحقيقيَّة، فإنَّ حركـة بكـر صوباشي، كانت قد مهَّدت لاحتـلالٍ صفويٍّ ثانٍ للعـراق[٣]، إذ لم تقتصر السـيطرة الصفويَّة على بغداد فحسـب، بل وسَّـع الشـاه عبَّاس الصفوي[٤]، منذ سـنة ١٦٢٣م، سيطرته على الحِلَّة وكربلاء والنجف، وعيَّن لها العمَّال، ورتَّب فيها الحاميات اللازمة، ثمَّ رجع إلى إيران، بعد أن ترك صفي قولي خان حاكمًا على العراق[٥].

ارتقى السلطان مراد الرابع[٦] عرش السلطنة العثمانيَّة في ١٤ ذي القعدة ١٠٣٣ هـ/

=عالم آراي عبَّاس، جايخانة إسلاميَّة، ج٣، تهران، ١٣١٧ش/ ١٩٣٨م، ص٩٨٦.

(١) السـباهيَّة: سباهي كلمة فارسـيَّة الأصل، تعني حرفيًّا: فارس، واستخدمها العثمانيُّون للدلالة عـلى الفرسـان الإقطاعيِّين الذين كانـوا يشـكِّلون أوَّلى القـوَّات النظاميَّة في دولتهـم، يتقاضى السـباهي راتبه على شـكل ضرائب من إقطاعه، مقابل أن يخرج بنفسـه، أو مـع أتباع له في أثناء استدعائه للخدمة العسكريَّة. للمزيد ينظر: هاملتون جب وهارولد بوين، المصدر السابق، ج١، القسم الأوَّل، ص٧٢.

(٢) مصطفـى بن نعيما الحلبيّ، تاريخ نعيما المسـمَّى روضة الحسـين في أخبار الخافقين، اسـطنبول، ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٢م، ص٢١٧.

(٣) كان الاحتـلال الصفـويّ الأوَّل للعراق مـا بين سـنة ١٥٠٨-١٥٣٤م. للمزيد ينظر: المصدر نفسه، ص٢٦٧.

(٤) عبَّاس الصفويّ (١٥٨٧-١٦٢٩م): شـاه إيران الملقَّب بالكبير، تسـلَّم السلطة بعد أبيه الشاه محمَّد خدابنده، اعتنى بالتنظيمات العسـكريَّة، وقمع الثوَّار والعصاة داخل مملكته، نقل عاصمته من قزوين إلى أصفهان، استولى على بغداد سنة ١٦٢٢م، وعلى الحِلَّة سنة ١٦٢٣م. للمزيد ينظر: بديـع محمَّد جمعة، الشـاه عبَّـاس الكبير١٥٨٧-١٦٢٩م، بـيروت، المطبعـة العصريَّة، ١٩٨٠، ص٢٩.

(٥) يوسف كركوش الحِلِّيّ، المصدر السابق، ص١١٧.

(٦) مـراد الرابـع (١٦٢٣-١٦٤٠م): ولِد في جمادي الأوَّلى سـنة ١٠٢١هـ/ ٢٧ تموز ١٦١٢م،=

١٠ أيلول ١٦٢٣م، وكان صغيرًا، فكانت السلطة الحقيقيَّة بيد والدته (ماه بيكر)[١] حتَّى سنة ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م، حيث استلم بعد تلك السنة زمام السلطة والحكم، فكان أهم تحدٍّ له هو استعادة العراق من السيطرة الصفويَّة، فأرسل في سنة ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م، حافظ باشا[٢] والي ديار بكر، لمحاصرة بغداد واستعادتها من أيدي الصفويِّين، وفي فترة الحصار التي استمرَّت من ثلاثة إلى أربعة أشهر، تمكَّنت القوَّات العثمانيَّة من الاستيلاء على الحِلَّة، والتي ذاق أهلها الأمَرَّين من قلَّة المؤن والغذاء، وما تعرَّضوا له من أعمال القسوة والظلم على يد الطرفَين المتنازعَين، وبعد فشل تلك الحملة، انسحبت القوَّات العثمانيَّة من الحِلَّة، فعادت السيطرة الصفويَّة عليها من جديد[٣].

أرسلت الحكومة العثمانيَّة حملتها الثانية لاستعادة بغداد في سنة ١٠٤٠هـ/ ١٦٢٩م، وكانت بقيادة الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) خسرو باشا، بعد أن سبقتها حملة أخرى توجَّهت إلى الحِلَّة وكربلاء والنجف، ضمن خطَّة وضعتها القيادة العسكريَّة العثمانيَّة، هدفها قطع الصلة بين الحامية الإيرانيَّة في بغداد، والقوَّات الفارسيَّة المتمركزة في الجنوب[٤]، وسلكت تلك القوَّات طريق

=استطاع القضاء على الصفويِّين، وانتزاع العراق منهم، توفِّي سنة ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م. للمزيد ينظر: ياسين الخطيب العمريّ، ص١٧٧.

(١) ماه بيكر: كلمة تركيَّة معناه ذات الوجه الحسن. للمزيد ينظر: محمَّد فريد بك، المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢) حافظ باشا: أحد الولاة العثمانيِّين، ولد في استانبول سنة ٩٩١هـ/ ١٥٨٤م، عيِّن واليًا على الشام وأرضروم وبغداد وديار بكر، سيطر على الحِلَّة سنة ١٦٥٢م. للمزيد ينظر: خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربيَّة في العهد العثمانيّ، اسطنبول، شمس مطبعة سي، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م، ص١٠٤.

(٣) يوسف كركوش الحِلِّيّ، المصدر السابق، ص١١٧.

(٤) عبد الأمير الرفيعي، العراق بين سقوط الدولة العبَّاسيَّة وسقوط الدولة العثمانيَّة، ج٢، بغداد، ٢٠٠٥م، ص١٥٩.

بـيره جك[١]، ومنهـا تحرَّكت عبر الفـرات، فوصلت الحِلَّة، وفيهـا دارت معركة عنيفة اسـتطاعت فيها الحامية الفارسـيَّة في الحِلَّة إيقاع الخسـائر الجسـيمة بالقـوَّات العثمانيَّة المهاجمة[٢]، وعلى الرغم من فشـل خسرو باشا في بغداد، فإنَّه أيقن بأنَّ التمسُّك بسنجق الحِلَّـة يمكـن أن يسـاعد الدولـة العثمانيَّة عـلى مواصلة الحـرب، والعودة مـرَّة أخرى للاستيلاء على بغداد في السنة التالية[٣].

أرسـل الصدر الأعظم خسرو باشا إلى الحِلَّة قوَّة عسكريَّة تربُوا على العشرين ألف مقاتل، كانت بقيادة أمير آمد[٤] خليل باشا، الذي أخذ معه وحدات من الإنكشاريَّة[٥]، فاسـتولت تلك القوَّة على الحِلَّة، وبدأت بحفر الخنادق وتأمينها، واسـتعدادها لمواجهة القوَّات الفارسيَّة[٦].

إنَّ سـيطرة خليل باشـا على الحِلَّـة، لم تثنِ القوَّات الفارسـيَّة من محاولة السـيطرة

(١) بـيره جك: مدينة بأرض الجزيرة على الضفـة اليسرى لنهر الفرات، ومعناها بلهجة العامَّة (بله جـك)، أي القلعة الصغـيرة، وترجع أهميَّتها إلى كونها ملتقى القوافل التجاريَّة الآتية من شـمال الشـام إلى الجزيـرة، ومنها إلى العـراق. للمزيد ينظر: نعيـم زكي فهمي، طرق التجـارة الدوليَّة ومحطَّاتها بين الشرق والغرب في العصور الحديثة، القاهرة، ١٩٧٣، ص١٣٠-١٣١.

(٢) محمَّد فريد بك، المصدر السابق، ص٢٨١.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٨١.

(٤) آمد: هي آميدا الرومانيَّة، مدينة في غربي دجلة الأعلى، اشتهرت بحصانتها وبحجارتها السوداء، حتَّى عُرفت بآمد السـوداء، وازدهرت ازدهارًا كبيرًا في العهود الإسلاميَّة، وعدَّت قاعدة إقليم ديار بكر، حرَّف العثمانيُّون اسـمها إلى قره حميد؛ لأنَّ قره تعني: الأسـود، ثمَّ شـاعت تسـميتها باقليمهـا، فعُرفت باسـم ديار بكر مطلقًـا، وأصبحت مركزًا لولاية باسـمها. للمزيد ينظر: كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقيَّة، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عوَّاد، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٤، ص١٤٢.

(٥) عبَّاس العزَّاويّ، المصدر السابق، ص٢٠١.

(٦) يوسف كركوش الحِلِّيّ، المصدر السابق، ص١١٨.

والهجوم عليها، فهاجمتها قوَّات فارسيَّة بقيادة رستم خان، لكنَّه لم يستطع استعادتها من العثمانيين[١]، فهاجمها الشاه الصفويّ الجديد (صفي الأوَّل) بنفسه ومعه نحو أربعين ألف جندي، فحاصرها مدَّة ثلاثة أشهر من دون أن تستطيع القيادة العسكريَّة العثمانيَّة إرسال الامدادات الكافية لقوَّاتها التي كانت بقيادة خليل باشا المار ذِكره في أعلاه، والذي هجم بما معه من قوَّات على إحدى جبهات الفرس، فاخترقها وهرب منها إلى الموصل، فاستولى الشاه وجنوده على الحِلَّة[٢].

أوقع الفرس بأهل الحِلَّة ما شاؤوا من قتل ونهب بحجَّة تعاونهم مع العثمانيِّين، فصار الناس يخاف بعضهم من الآخر بالوشاية إلى العثمانيِّين، وخُرِّبت ودُمِّرت البيوت، وأُتلفت بساتين الأهالي، الأمر الذي انعكس بصورة أشد قسوة على الفقراء، فارتفعت الأسعار، وقلَّت الأقوات[٣]. وشدَّد الفرس الصفويِّين الخناق على الناس وأذلُّوهم، فأجبروهم على أعمال السخرة في حفر خندق حول المدينة[٤].

وبعد خمس سنوات من سيطرة الفرس الجديدة على الحِلَّة، وتحديدًا في ٣ شعبان سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م، وقع الطاعون في الحِلَّة، فأوقع في أهلها الموت والهلاك، وهرب الكثير من سكَّانها إلى مدن العراق المختلفة، وهلكت عوائل بأكملها، فكان لذلك الوباء وقعه في النفوس، ونتج عنه تبدُّل في أحوالهم، ثمَّ خفَّت وطأته، وانتهى ذلك الوباء في شهر ذي الحجَّة من تلك السنة، بعد أن خلَّف وراءه الآلاف من الموتى[٥].

(١) يوسف كركوش الحِلِّيّ، المصدر السابق، ص١١٩.
(٢) مصطفى بن نعيما الحلبيّ، المصدر السابق، ص٦٥.
(٣) عبَّاس العزَّاويّ، المصدر السابق، ص٢٠٢.
(٤) نظمي زاده مرتضى أفندي، المصدر السابق، ص٦٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٢٩، عبَّاس العزَّاويّ، المصدر السابق، ص٢٠٦.

تمكَّن السلطان العثمانيّ مراد الرابع سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م، وفي حملته الناجحة لاسترجاع بغداد من الفرس، من استعادة الحِلَّة ثانية منهم، فكثر الشغب والنزاع بين العشائر بعضها مع بعض من جهة[١]، وبينها وبين الحكومة العثمانيَّة من جهة أخرى[٢]. وخلال المرحلة التي تلت سيطرة العثمانيِّين على الحِلَّة، زادت هجمات الفرس عليها بحجَّة الوصول إلى الأماكن المقدَّسة في كربلاء والنجف والكوفة، لذلك أصبحت الحِلَّة تعاني من الاضطراب الإداريّ الناجم عن الفوضى السياسيَّة، ممَّا اضطرَّ ولاة بغداد إلى جعلها قاعدة عسكريَّة مهمَّة للقضاء على الفوضى الناشئة في تلك المناطق[٣]، وهو ما حصل في أثناء حملة الوالي العثماني (قره مصطفى باشا) للقضاء على حاكم البصرة حسين باشا أفراسياب، إذ تحرَّكت تلك الحملة من بغداد في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٦٦٧م، فمرَّت بالإسكندريَّة[٤]، ومنها توجَّهت إلى الحِلَّة التي اجتمعت فيها القوَّات المهاجمة السائرة إلى البصرة[٥].

استمرَّت الحِلَّة خاضعة للنفوذ العثمانيّ بعد المرحلة التي تلت استعادة العثمانيِّين

(١) أهم النزاعات العشائريَّة كانت بين مطلك أبو ريشة شيخ عرب الجزيرة، الذي قدَّم لحملة مراد الرابع الدعم والمساعدة، وبين مهنَّا شيخ الخزاعل في منطقة السماوة وما جاورها، وكلٌّ طرف حاول أن يستحصل لنفسه السلطة والجاه، فكثرت الفوضى والاضطرابات وقُطِعت الطرق. للمزيد ينظر: المصدر نفسه، ص٢١٠، ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص٩٣.

(٢) عطيَّة دخيل عبَّاس الطائيّ، الحِلَّة من سنة ١٩١٤-١٩٢١ دراسة في الأحوال السياسيَّة والإداريَّة، أطروحة دكتوراه مقدَّمة إلى مجلس كليَّة التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، شباط، ١٩٩٨، ص٤٦.

(٣) محمَّد عبد اللطيف البحراويّ، حركة الإصلاح العثمانّي في عهد السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩م، بيروت، د.ت، ص٣٣٠.

(٤) المقصود بها إسكندريَّة العراق، إحدى مدن محافظة بابل الآن، على الطريق الرابط بين بغداد والحِلَّة، تمييزًا لها عن مدينة الإسكندريَّة في مصر وغيرها. الباحث.

(٥) نظمي زاده مرتضى أفندي، المصدر السابق، ص٢٧٠.

للعراق سنة ١٦٣٨م، حيث أنهت معاهدة زهاب في ١٤ محرَّم سنة ١٠٤٩هـ/ ١٧ مايس ١٦٣٩م، النزاع الدائر بين الدولتَين العثمانيَّة والفارسيَّة حوله[١]، ثمَّ تعاقبت على حكم سنجق الحِلَّة العديد من الأمراء الضبَّاط العثمانيِّين، حتَّى مطلع القرن الثامن عشر الميلاديّ، حين بدأ حكم أسرة آل عبد الجليل، التي استمرَّت تحكم الحِلَّة طوال ذلك القرن[٢].

في ضوء ما تقدَّم، يمكن القول إنَّ تاريخ الحِلَّة بأوجهه المختلفة، ومنذ النصف الأوَّل من القرن السادس عشر الميلاديّ، وطوال القرن السابع عشر الميلاديّ، لا يعدو أن يكون انعكاسًا للصراع الفارسيّ العثمانيّ على مناطق العراق كافَّة، ومنها الحِلَّة، التي أصبحت وبحكم ما تمتاز به من موارد اقتصاديَّة وبشريَّة، مضافًا إليها موقعها الجغرافيّ وسط العراق، جعلها تتأرجح في أن تكون تارةً تحت سيطرة الفرس، وتارةً أخرى تحت سيطرة العثمانيِّين، وتلك الأوضاع كانت قد أودت بحياة الكثير من سكَّان الحِلَّة، وهجرها قسم آخر إلى المناطق المجاورة، فتقلَّصت حدود الأماكن الآهلة بالسكَّان.

لقد أثَّرت الأحوال السياسيَّة لمدينة الحِلَّة في أثناء المدَّة (١٥٣٤-١٧٠٠م) في جوانب الحياة الأخرى، الاقتصاديَّة منها والاجتماعيَّة والفكريَّة، وهو أمر طبيعيّ؛ لأنَّ أي مؤثِّر سياسيّ سوف تصبُّ محصِّلته النهائيَّة في بقيَّة الجوانب الأخرى، إضافة إلى ذلك، فإنَّ جميع تلك الجوانب تأثَّرت بصورة طبيعيَّة بما حصل في مختلف مدن العراق المختلفة وقراه، فلو رجعنا إلى الطرفَين المتنازعَين (العثمانيّ والفارسيّ)، فإنَّ كليهما لا يملك الرصيد الحضاريّ الذي يمكن أن يقدِّمه إليه الشخص

(١) شاكر صابر الضابط، العلاقات الدوليَّة ومعاهدات الحدود بين العراق وإيران، بغداد، دار البصريّ للطباعة والنشر، ١٩٦٦، ص٤٧.
(٢) عماد عبد السلام رؤوف، المصدر السابق، ص٢٩٢.

الحِلِّيّ[1]، لذلك احتفظ الأهالي بالعلاقات الاجتماعيَّة على ما كانت عليه قبل دخولهم، إذ ظلَّ الناس في الحِلَّة يمارسون عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعيَّة، وطقوسهم الدينيَّة بدون قيود، مع رجحان الكفَّة لصالح الطرف المتنفِّذ (عثمانيًّا كان أو فارسيًّا)[2]، وأنَّ المراكز الاجتماعيَّة في الحِلَّة، كالأسواق والحمَّامات العامَّة والمقاهي، استمرَّت في ممارسة أدوارها دون تغيير أو تبديل، فأسواق الحِلَّة في تلك المرحلة لم تكن مراكز اقتصاديَّة فحسب، بل إنَّها كانت مراكز للتفاعل الاجتماعيّ بين سكَّان الحِلَّة وضواحيها، وبينهم وبين الوافدين إليها من العرب والأجانب، والشيء نفسه يمكن أن يُقال عن المقاهي والحمَّامات العامَّة[3].

على حين شهد الجانب الاقتصاديّ محاولة الطرفَين المتنازعَين الاستحواذ على جميع الموارد الاقتصاديَّة، وحرمان أهل المدن، ومنها مدينة الحِلَّة، من تلك الموارد، وفقًا لسياسة اقتصاديَّة انحصرت ما بين السيطرة الكاملة على المرافق الاقتصاديَّة (الزراعيَّة والتجاريَّة)، والتصرُّف بها دون مراعاة لمصلحة المدن، إلى فرض الضرائب المتخلفة على طبقات المجتمع، وخاصَّة الطبقة الفقيرة منها، من أجل إضعافهم، ومحاولة التأثير عليهم، وبالتالي إجبار الناس على الخضوع لهم[4]. ويبدو أنَّ ممارسة تلك السياسة الاقتصاديَّة قد أفادت كِلَا الطرفَين، لاسيما العثمانيّ، حيث كان لتطبيق نظام التيمار الإقطاعيّ في سنجق الحِلَّة أثره الكبير في ذلك.

(١) طارق نافع الحمدانيّ، بعض جوانب الحياة الاجتماعيَّة في مدينة بغداد ومصادر وثائقها خلال القرنَين السابع عشر والثامن عشر، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٩.

(٣) ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص٢٣، خالص الأشعب، أصالة المدينة العربيَّة، مجلَّة آفاق عربية، العدد الأوَّل، السنة الثالثة، أيلول ١٩٧٧، ص٤٦.

(٤) طارق نافع الحمدانيّ، المصدر السابق، ص١٨.

وكان من البديهي أن يتأثَّر الجانب الفكريّ بنتائج الجوانب الأخرى، فالحِلَّة التي كانت قد بزغت فيها شمس النهضة الأدبيَّة، مدَّة أربعة قرون، بدءًا من نهاية القرن الخامس الهجريّ (الحادي عشر الميلاديّ)، وإلى نهاية القرن التاسع الهجريّ (الخامس عشر الميلاديّ)، واستضاء بنورها العالم الإسلاميّ، نجدها قد فقدت بريقها العلميّ والأدبيّ، الذي بلغ أوج سطوعه طيلة القرن السابع الهجريّ (الثالث عشر الميلاديّ)، وكأنَّ لسان حالها يقول:

وقفت على الدار التي كنتم بها
فمغناكم من بعد معناكم قفر
وقد درست فيها العلوم وطالما
بها درس العلم الإلهي والذكر
وسالت عليها من دموعي سحائب
إلى أن تروَّى البان بالدمع والسدر[1]

وذلك ناتج من جهل الفرس والعثمانيِّين، وجفاء طباعهم وظلمهم، وعدم اهتمامهم بالعلماء والأدباء والمفكِّرين، فضلًا عن الاضطراب والارتباك الذي أحدثوه في نواحي الحياة الأخرى، ممَّا أثَّر سلبًا في الحياة الثقافيَّة في الحِلَّة بصورة عامَّة، الأمر الذي نتج عنه هجرة العديد من الشعراء والأدباء إلى داخل وخارج العراق، على سبيل المثال لا الحصر، أبي الغنائم محمَّد الحِلِّيّ الحسينيّ، الذي ترك الحِلَّة في القرن الحادي عشر الهجريّ (السابع عشر الميلاديّ)، ودخل الهند أيَّام ملكها أكبر شاه، والشاعر الحِلِّيّ جمال الدين بن محمَّد بن عوَّاد الهيكليّ، الذي كان من تلاميذ ابن فهد الحِلِّيّ، وكان أن دخل الديار الهنديَّة أيضًا، وله قصيدة بيَّن فيها مغادرته لمدينته الحِلَّة، إذ قال في إحدى أبياتها:

(١) يوسف كركوش الحِلِّيّ، المصدر السابق، القسم الثاني في الحياة الفكريَّة، ص١٠٨.

سريــت مــن الـفـيـحـاء فــوق عـرنـدس

قطعت بهـا النيخاء والـوهـد والـقـلـل[1]

ومن الشـعـراء الحِلِّيِّين الذين تركوا الحِلَّة إلى مدن العراق المختلفة، الشـاعر السيِّد نعـمان الحِلِّيّ، وهو من السـادة الأعرجيِّين، وأحد شـعراء القرن الحـادي عشر الهجريّ (السـابع عـشر الميـلاديّ)، والـذي رحل إلى بغـداد، والسـيِّد عليّ بن يحيـى بن حديد الحسينيّ، ويُنسب إلى أسرة آل حديد الساكنة في الحِلَّة وبعض من أطرافها، مثل الهاشميَّة (على طريق الحِلَّة- الديوانيَّة العام)، وقناقيا (قرية جناجة اليوم)[2].

إنَّ طبيعـة المجتمع العراقيّ في تلـك المرحلة، وخاصَّة فيما يتعلَّق بالجانب الفكري، التي كانت تجري في نطاق مجموعة من القوالب والخطوط المتأثرة بأعمال السحر والخرافة وتقديس الأرواح، جعلت الإنسان العراقيّ عامَّة، والحِلِّيّ خاصَّة، يفكر بعقل مجتمعه لا بعقله المجرَّد، وهو عامل مضاف إلى تلك العوامل التي ساهمت في ذلك الركود الفكريّ والأدبيّ[3]، لكن وجود أولئك الشـعراء والأدباء خارج مدينة الحِلَّة، لا يعني بالضرورة النهايـة الأدبيَّة للنهضة الفكريَّة والعلميَّـة فيها، فسرعان ما ظهرت بوادر تلك النهضة، منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجريّ (الثامن عشر الميلاديّ).

(١) يوسف كركوش الحِلِّيّ، المصدر السابق، ص١٠٩-١١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١١٧.

(٣) علـيّ الـورديّ، دراسـة في طبيعة المجتمـع العراقيّ، قم المقدَّسـة، مطبعة ثامـن الحجج عليهم السلام، ص١٦٥.

الخاتمة

توصل البحث إلى جملة استنتاجات يمكن اجمالها على النحو الآتي:

١. أصبحت الحِلَّة في المرحلة التي تلت دخول السلطان العثمانيّ سليمان القانونيّ إلى بغداد سنة ١٥٣٤م حتَّى نهاية القرن السابع عشر، أحد المراكز الرئيسة للعثمانيِّين في منطقة وسط وجنوب وسط العراق؛ نظرًا لموقعها الجغرافيّ المميَّز.

٢. اكتسبت الحِلَّة أهميَّتها لدى العثمانيِّين من جانبَين مهمَّين، أوَّلهما الجانب العسكريّ، الذي جعل منها منطقة مهمَّة لانطلاق العساكر العثمانيَّة في حروبها الداخليَّة ضدَّ التمرُّدات والحركات الثائرة، وأهمُّها الحركات العشائريَّة. والخارجية ضدَّ الفرس، إذ أصبحت الحِلَّة المكان الذي دفع به القادة الفرس، وبمختلف المراحل الزمنيَّة، جزءًا من قوَّاتهم لقطع خطوط الإمدادات والمواصلات التي يتوقَّع وصولها لنجدة العثمانيِّين من مناطق وسط العراق وجنوبه، وثانيهما الجانب الاقتصاديّ المتمثِّل في وفرة إنتاجها الزراعيّ والحيوانيّ، والناتج عن شبكة الأنهار المتفرِّعة من نهر الفرات (شط الحِلَّة) المهم في النقل النهريّ، فكان لجمع الضرائب فيها أهميَّة كبيرة للسلطة العثمانيَّة.

٣. صارت الحِلَّة بموجب التنظيمات العثمانيَّة لسنة ١٥٣٤م، التي اتَّخذها السلطان

سـليمان القانونيّ واحدة من أهـمِّ مراكز التبادل التجـاريّ في المنطقة، فكانت والحالة هذه البوَّابة الرئيسة لدخول البضائع والسلع المختلفة إلى مدينة بغداد، إضافـةً إلى ذلك وفـرة المحاصيل الزراعيَّة فيها، ممَّا أكسـبها الأهميَّة الكبيرة في نظـر الدولـة العثمانيَّة وفي نظر السـلطان العثـمانيّ في العاصمة اسـطنبول، ممَّا أكسبها أهميَّة مضاعفة.

قائمة المصادر

أوَّلًا: الكتب

أ. الكتب الأجنبيَّة:

1. Donald Pitcher, An Historical Geography of the Ottoman Empire from earliest to the end of the Sixteenth Century, Combridge, 1972.
2. Halil Inalick, The Encyclopedia of Islam, Art Eyalet Newedition, Vol. 22, London, 1965 .

ب. الكتب العربيَّة:

١. إبراهيم خليل أحمد، تاريخ الوطن العربيّ في العهد العثمانيّ، الموصل، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٦.
٢. باقر أمين الورد، بغداد خلفائها، ولاتها، ملوكها، رؤسائها منذ تأسيسها حتَّى سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، بغداد، دار التربية للطباعة والنشر، ١٩٨٤.
٣. بديع محمَّد جمعة، الشاه عبَّاس الكبير ١٥٨٧-١٦٢٩م، بيروت، المطبعة العصريَّة، ١٩٨٠.

٤. ساطع الحصريّ، البلاد العربيَّة والدولة العثمانيَّة، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.

٥. سيَّار كوكب الجميل، تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦، الموصل، مطابع جامعة الموصل، ١٩٩١.

٦. شاكر صابر الضابط، العلاقات الدوليَّة ومعاهدات الحدود بين العراق وإيران، بغداد، دار البصري للطباعة والنشر، ١٩٦٦.

٧. طارق نافع الحمدانيّ، بعض جوانب الحياة الاجتماعيَّة في مدينة بغداد ومصادر وثائقها خلال القرنَين السابع عشر والثامن عشر، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٨٩.

٨. عبَّاس العزَّاويّ، تاريخ العراق بين احتلالَين، ج٤، بغداد، شركة التجارة والطباعة المحدودة، ١٩٥٤.

٩. عبد الأمير الرفيعيّ، العراق بين سقوط الدولة العبَّاسيَّة وسقوط الدولة العثمانيَّة، ج٢، بغداد، ٢٠٠٥.

١٠. عبد الحميد حامد سليمان، تاريخ الموانئ المصريَّة في العهد العثمانيّ دورها السياسيّ ونظمها الماليَّة والإداريَّة والاقتصاديَّة، القاهرة، دار الكاتب العربيّ، ١٩٩٥.

١١. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيُّون ١٥١٦-١٩١٦م، دمشق، مطبعة ألف باء، ١٩٧٤.

١٢. عبد الكريم محمود غرايبة، مقدِّمة في تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠-١٩١٨م، ج١، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠.

١٣. عبد الوهاب عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العرب الحديث، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٤.

١٤. عليّ الورديّ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقيّ، قم المقدَّسة، مطبعة ثامن الحجج عليه السلام، ٢٠٠٤.

١٥. عماد عبد السلام رؤوف، إدارة العراق (الأسر الحاكمة رجال الأدارة والقضاء في العراق في القرون المتأخِّرة)، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٩٢.

١٦. عمر عبد العزيز عمر، المشرق العربيّ من الفتح العثمانيّ حتَّى نهاية القرن الثامن عشر، القاهرة، مطبعة النهضة العربيَّة، ١٩٧١.

١٧. فيليب حتِّي، موجز تاريخ الشرق الأدنى، بيروت، د.م، ١٩٦٥.

١٨. محمَّد أنيس، الدولة العثمانيَّة والشرق العربيّ ١٥١٤-١٩١٤م، القاهرة، مطبعة الأنجلو- مصريَّة، ١٩٨٥.

١٩. محمَّد حسن البغداديّ، شعراء الرحلات العرب، ج١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٧.

٢٠. محمَّد فريد بك، تاريخ الدولة العليَّة العثمانيَّة، القاهرة، مطبعة الأنجلو- مصريَّة، ١٩١٢.

٢١. نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدوليَّة ومحطَّاتها إلى الشرق والغرب في العصور الحديثة، القاهرة، دار الكاتب العربيّ، ١٩٧٣.

٢٢. نوري عبد الحميد خليل، العراق في مواجهة الغزو الأجنبيّ ١٢٥٨-١٩١٧م، بغداد، ١٩٩٨.

٢٣. ياسين الخطيب العمريّ، الدرُّ المكنون في المآثر الماضية من القرون، تحقيق: سيَّار كوكب الجميل، إسكتلندا، مطبعة شمس الشرق، ١٩٨٣.

٢٤. ياسين الخطيب العمريّ، زبدة الآثار الجليَّة في الحوادث الأرضيَّة، الموصل، ١٩٨٨.

٢٥. يعقوب سركيس، مباحث عراقيَّة في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد، القسم الثاني، بغداد، مطبعة شركة التجارة والطباعة المحدودة، ١٩٥٥.

٢٦. يوسف كركوش الحِلِّيّ، تاريخ الحِلَّة، القسم الأوَّل والثاني، النجف، المطبعة الحيدريَّة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

ج. الكتب المعرَّبة:

٢٧. أحمد مصطفى أبو حاكمة، محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربيَّة في العصور الحديثة، ترجمة محمَّد أمين عبد الله، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٦.

٢٨. ألبرت سيديو، تاريخ العراق المتأخِّر، ترجمة إبراهيم حسن مصطفى، بيروت، مطبعة البلاد، د.ت.

٢٩. أندري كلو، سليمان القانونيّ مثل من التمازج بين الهويَّة والحداثة، تعريب البشير بن سلامة، بيروت، دار الجبل، ١٩٩١.

٣٠. ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، ط٤، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٨.

٣١. شرف الدين خان البدليسيّ، الشرفنامة، ترجمه عن الفارسيَّة محمَّد عليّ عوني، ج٢، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيَّة، ١٩٦٢.

٣٢. كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقيَّة، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عوَّاد، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٤.

٣٣. محمَّد فؤاد كوبريللي، قيام الدولة العثمانيَّة، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، المطبعة الحجريَّة، ١٩٦٧.

٣٤. نظمي زاده مرتضى أفندي، كلشن خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس، النجف الأشرف، مطبعة الآداب، ١٩٧١.

٣٥. هاملتون جب وهارولد بوين، المجتمع الإسلاميّ والغرب، ترجمة عبد المجيد القيسيّ، ج١، القسم الأوَّل والثاني، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٧.

د. الكتب التركيَّة

٣٦. خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربيَّة في العهد العثمانيّ، شمس مطبعة سي، استانبول، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م.

٣٧. شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، مج٣، استانبول، اقدام مطبعة سي، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م.

٣٨. محمود شوكت، عثمانلي تشكيلات وقيافات عسكري، استانبول ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م.

٣٩. مصطفى بن نعيما الحلبيّ، تاريخ نعيما المسمَّى روضة الحسين في أخبار الخافقَين، ج٦، اسطنبول، ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م.

و. الكتب الفارسيَّة

٤٠. اسكندر بك منشىء تركمان، ذيل تاريخ عالم آراي عبَّاسي، تصحيح سهيل خوشاري، ج٣، جايخانة اسلامية، تهران ١٣١٧ش/ ١٩٣٨م.

٤١. باول هورن، تاريخ مختصر إيران، تهران، ١٣١٤هـ.ش.

ثانيًا: الصحف والدوريَّات

٤٢. ألبرت حوراني، الأسس العثمانيَّة للشرق الأوسط، بيروت، مجلَّة تاريخ العرب العالم، العدد (١٣)، ١٩٨٢.

٤٣. خالص الأشعب، أصالة المدينة العربيَّة، بغداد، مجلة آفاق عربيَّة، العدد (١)، السنة الثالثة، أيلول، ١٩٧٧.

٤٤. سيَّار كوكب الفارسيّ، بغداد، مجلَّة آفاق عربيَّة، العدد (١٠)، السنة الثالثة، حزيران، ١٩٨١.

ثالثًا: الرسائل والأطاريح الجامعيَّة

٤٥. حسين محمَّد القهواتيّ، تاريخ العراق بين الاحتلالَين العثمانيّ الأوَّل والثاني ١٥٣٤-١٦٣٨م، رسالة ماجستير غير منشورة، كليَّة الآداب، جامعة بغداد، كانون الثاني، ١٩٧٥.

٤٦. خليل عليّ مراد، تاريخ العراق الإداريّ والاقتصاديّ في العهد العثمانيّ الثاني ١٠٤٨-١١٦٤هـ/ ١٦٣٨-١٧٥٠م، رسالة ماجستير غير منشورة، كليَّة الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٥.

٤٧. عطيَّة دخيل عبَّاس الطائيّ، الحِلَّة من سنة ١٩١٤-١٩٢١م دراسة في الأحوال السياسـيَّة والإداريَّة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كليَّة التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، شباط، ١٩٩٨.